مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

ثنائية المرأة والمكان في رواية (سلمى الأسوانية) لعبد الوهاب الأسواني

د. رفاعي يوسف عبد الحافظ
كلية الآداب بأسوان – جامعة جنوب الوادي

أبحاث

ثنائية المرأة والمكان في رواية (سلمى الأسوانية) لعبد الوهاب الأسواني

د. رفاعي يوسف عبد الحافظ
كلية الآداب بأسوان – جامعة جنوب الوادي

تتحدد العلاقة بين الشخوص والمكان الروائي ، على أساس من المعايشة الصادقة أو الزائفة بين هذه الشخوص وتلك الأمكنة . وإذا كان العمل الروائي هو محاولة لرصد هذه المواقف الإنسانية ، من خلال تكثيف نقاط المعايشة بين الشخوص والأمكنة ، أصبح من الواجب على الكاتب الروائي أن يعمق من هذه العلاقة على المستوى الفني ، بما تحمله الشخوص من تجسيد لبيئاتها المكانية ، وما تحويه من عناصر. ولا يعنى هذا جعل كل الشخوص في العمل الروائي تتخطى الأدوار المرسومة لها بعناية، لتصبح في نهاية المطاف مرايا عاكسة لواقعها الجغرافي أو الإقليمي، متجاهلة دورها الفني و الدرامي الذي أراده لها الكاتب.

لذلك فإن" الشخصية في الرواية الحديثة ، ترفض الوصاية ، كما ترفض الافتعالات التي ليست لها سياقات حقيقية ، وخطابها ليس هو خطاب المؤلف ، ولكنه يجسد صوتها الحامل لسمات العصر الذي تتحدث فيه "(١).

والأعمال الروائية التى جعلت من ثنائية المرأة - أو الشخصية بوجه عام- والمكان الروائي منطلقاً فنياً لها، قد أبرزت هذه الدلالات المكانية وسيطرتها على الشخوص الروائية علي المستويين الفردي والجماعي، لتقدم لنا الكثير من الجوانب المضيئة أو المظلمة لشخوصها، نتيجة لعملية فنية انصهرت فيها الشخصيات الروائية في بوتقة المكان بخصوصيته وجمالياته ، وكأن المكان قد خلق هذه الشخصيات من جديد ، أو كانت الشخصيات نتيجة حتمية لخصوصية هذا المكان الذى يشارك الشخوص ويزاحمها البطولة . بل في حالات كثيرة ينفرد المكان بالبطولة ، مدعماً- أو مهمشاً – الدور البطولي لشخوص العمل الفني ، خلال عملية تجاذب الأدوار وتنازع البطولة بين الشخصية والمكان الروائي .

يضع عبد الوهاب الأسواني في روايته (سلمي الأسوانية) القارئ أمام هذه الثنائية التي تقف المرأة علي أحد أطرافها ، والمكان الروائي علي الطرف الآخر.ومع تدفق الأحداث نجد هناك تضافراً بين الطرفين ، في الوقت الذي تبلغ فيه المقابلات أقصي حدودها في نقاط متعددة، وتأخذ أشكالاً مختلفة:

(المرأة) ←——— في مقابل (المكان)
(القرية) ←——— في مقابل (المدينة)

(الجنوب) ← في مقابل (الشمال)
(سلمي الأسوانية) ← في مقابل (نادية السكندرية)

" فالرواية في جزء كبير منها ، عند الإبداع والاستهلاك معاً ، إنتاج فردى، يكفي أن يكون هناك مبدع عبقري يستطيع استلهام الطاقة الخلاقة في جماعته ويبلور في كلمات مصفاة رؤيتهم للعالم ، حتي يقدر علي إقامة كونه الروائي مستفيداً من كل التجارب الإنسانية بقدر كفاءته في تمثلها واستيعابها وأدائها في الكلمات والأشكال الفنية "[٢]

يستمر عبد الوهاب الأسواني في عملية المجاهدة الذهنية خلال هذه المقابلات التي تصل إلى حد المنازعة والمقارنة بين الثنائيات المختلفة. هذا في الوقت الذي تشكلت فيه صورة المرأة كرمز لكل هذه الأشكال والثنائيات ، فغدت المرأة هي المكان والأرض والوطن بأكمله. يتحدث الروائي عن محبوبته فلا نكاد نفصل أو نميز بين هذه المحبوبة وهذا الوطن .

وفن الرواية من أنضج الفنون الأدبية التى أثرت دور المرأة وشخصيتها، وجعلتها مرادفة لدلالات عديدة لعل أبرزها تلك الدلالات المكانية التي مزجت بين المرأة والمكان الروائي، بحيث خرجنا- بهذا - إلى ما يمكن أن نطلق عليه : (أنثوية المكان) أو (أنثوية الأمكنة الروائية) ، ليوصف المكان بكثير من صفات المرأة ، مثل : الجمال ، الأنوثة ، الخصوبة ، الأمومة ، الاحتواء.. لذلك نجد هذه العلاقة المتضافرة، أو هذا الربط الدلالي بين المرأة والمكان، الأرض، البيت، الوطن..وحتى القبر عندما يراد التعبير عن رحم الأم.

أنثوية المكان بين نادية و سلمى :

تضع الرواية (نادية السكندرية) في مقابلة ومقارنة غير متكافئة مع (سلمي الأسوانية) ومع تطور الأحداث الروائية ، نجد الكاتب وقد تعمد أن تنسحب هذه المقارنة إلي زوايا أخرى أراد لها الكاتب أن تأخذ موضع الصدارة خلال مناقشته مجموعة من القضايا الاجتماعية والإنسانية المتعلقة بالخريطة العامة للتنمية في مصر مابين شمالها وجنوبها، في محاولة لرصد حالة الإهمال والتجاهل الذي يعانيه الصعيد المصري بعد أن أسقطته الدولة – علي مدي زمني طويل – من بؤرة اهتمامها وبرامجها للتنمية على مختلف المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وتركت السلطة الجنوب المصري فترة ليست بالقصيرة وهو يعانى وحيداً فقدانه لأدوات المواجهة مع ذلك المثلث المرعب (الجهل والفقر والمرض) ولا يختلف الأمر كثيراً عند الحديث عن القرية المصرية في النتاج الروائي " وإذا كانت القرية قد عانت من كل الذي حاول الروائيون أن يجسدوه ، فإن لها كذلك مشاكلها الصغيرة جداً جداً . ولأبنائها طموحهم المحدود بحدود الأجازة الصيفية.."[٣].

يريد (مصطفي) بطل الرواية الزواج من (نادية) بنت الأسكندرية حيث يعمل ويعيش، يريدها بعقله قبل قلبه. ولكن كيف له ذلك، وهناك في أسوان – حيث موطنه

وعائلته – من يرسل له أن يأتي ليتزوج من ابنة عمه (سلمي) ؟ ويدور البطل في فلك الأزمة التي تعصف بقلبه وعقله معاً، فهو لا يريد أن يعصي قلبه ، ويلوي ذراع عقله بترك نادية ، ولا يرغب أيضاً في كسر سلطة المكان والخروج علي تقاليد عائلته وموطنه برفض الزواج من ابنة عمه ، وتحمل تبعات ذلك الرفض.

" وتتضح مهارة المبدع في استثماره لآليات البناء للكشف عن الدلالات الجزئية والكلية الكامنة وراء الموقف والحدث.. وقد يتأتي ذلك من لمسات خافتة، أو إشارات سريعة غنية بالمعني ووفيرة بالدلالة ، ومحتشدة بالرمز"(٤)

تبدأ المسألة وكأن المنازعة هنا تتم بين:

(رغبة الارتباط بنادية ⟵ ومحاولة دفع الزواج من ابنة العم سلمي بعيداً) لكن القضية تتمحور – كما أراد لها الكاتب – حتى تتحول بتصاعدها الدرامي من مجرد منازعة بين فتاتين إلى مقارنة بين مكانين أو جهتين: (الأسكندرية في أقصي الشمال / وأسوان في أقصي الجنوب) . يدورالحوار بين مصطفى وأحد ركاب القطار المنطلق :

"عاد الرجل ومعه عامل البوفيه يحمل الشاي. سألني وهو يحتسي الشاي في تلذذ:
تزوجت؟.. ليس بعد.
قال وهو يبتسم :خاطب ؟.. تقريباً شبه خاطب.
فرد إبهامه وأشار إلي اتجاه القطار ثم مد سبابته وأشار بها في الاتجاه المضاد وقال: هنا.. أو هنا؟ ضحكت وأنا أشير ناحية الشمال : هنا!
رفع حاجبيه دهشة..ثم خفضهما وغمز بعينه وقال:تعجبني ! "(٥)
يربط الكاتب بين المرأة والمكان بشكل مباشر، حين يعقد تلك الصلة والرابطة المنطقية بين الفتاتين من جانب ، والمكانين من جانب آخر. وقد عبر عن كل مكان باتجاه يشير إليه، فقريته الأسوانية هناك جهة الجنوب حيث تقبع (سلمي) ، ومحبوبته السكندرية هناك جهة الشمال حيث تعيش نادية.

مابين الشمال والجنوب ، أو نادية و سلمي، تتكثف محنة البطل ، وتتواتر الأحداث التي تربط مابين الأمكنة والشخوص ، حتى تتحول نادية إلى تشخيص للأسكندرية (المدينة) بل و الشمال المصري كله ، في حين تتحول سلمي إلي (القرية) في أسوان والجنوب المصري بأكمله .

ولهذا تتحول الرواية - من بداية عنوانها – إلي نموذج مبسط لرواية الشخصية " والروائي في رواية الشخصية لا يتقيد بالتسلسل الصارم للحبكة ، ولا بضرورة تطوير

قصته دراميا ، فهو يملك حرية ابتكار ما تتطلبه الشخصيات ، ولذلك أصبح من التقاليد المعروفة أن تكون الحبكة في هذا النوع من الرواية مرنة وسهلة .. "[٦].

نادية السكندرية (المدينة) :

يقضي مصطفي فترة صباه وشبابه – طالباً وموظفاً – في الأسكندرية ، بعيداً عن قريته القابعة هناك في أسوان. يميل قلب بطلنا إلي نادية تلك الفتاة السكندرية التي وجد فيها مصطفي نموذجاً للفتاة العصرية المثقفة التي تشبع العقل قبل القلب ، ويسهب البطل في الحديث عن نادية وخصالها التي تجعلها تملك عليه قلبه وعقله معاً. يقول:" نادية التي تناقش معي الكتاب الذي تقرؤه.. وتقول رأيها في الفيلم الذي تشاهده..وتتذوق الموسيقي الشرقية والغربية.. وتطرب أيما طرب لبيت جميل من الشعر..وأهم من هذا هي الوحيدة التي تستطيع أن تعيد إليّ الابتسامة في أحرج الأوقات التي ينتابني فيها الحزن.. أين أنت يا نادية ؟ لشد ما أحتاج إليك الآن ، وأنا أشد الناس تعاسة وحزناً.. أنت فنانة يا نادية..عاشقة الفن.. هل في بنات حواء مثلك؟ متى ألقاك؟ لقد اشتقت إليك ولمايمض علي فراقي لك إلا يوم وبعض يوم.. أين تلك الابتسامة الودود؟" [٧].

يطرح الكاتب هذه الإشكالية علي القارئ ، ليشاركه الأزمة التي يمر بها بطل الرواية ، والذي يحاول أن ينقل للقارئ قناعته بالحبيبة نادية ، ويبدأ في تعداد مناقبها وخصالها التي تؤهلها لاحتلال الصدارة في قلبه وعقله. فهي فتاة عاملة، عصرية مثقفة ، تقرأ الآداب وتشاهد السينما، وتتذوق الموسيقي الشرقية والغربية.

يستطرد مصطفي في تعداد مزايا محبوبته نادية ، حتى يغدو الوصف التفصيلي لها بمثابة الوصف الأمثل للأسكندرية المدينة بتحضرها وعصريتها ، والخدمات التنموية المتوفرة لها كمدينة ساحلية من أكبر مدن مصر. يقول مصطفي عنها : " كان هناك تناقض واضح بين مظهر نادية الخارجي وبين طبيعتها الأصلية.. فمظهرها الخارجي يوحى بالارستقراطية والتعالي..عنق بديع يحمل وجهاً جميلاً.. يتوسطه أنف دقيق يجعله أشبه مايكون بتماثيل الإغريق القديمة.. ولكن عندما تتحدث تبدو البساطة الشديدة في حديثها إلي الحد الذي يقرب من براءة الأطفال.. حتى تعبيرات وجهها المتعالية تتحول عند حديثها إلي تعبيرات طفولية محببة.. ولعل هذه البساطة هى أهم ماورثته عن أمها.. ولم نستطع أن نكتم حبنا عن الأسرة – أسرة نادية – فضحتنا نظراتنا وحركات أيدينا العفوية وتهدج صوتينا.. فذاع خبر الحب بين أفراد الأسرة وأصبح حديث الجميع.. وكان لنادية شخصيتها في البيت..كان أبواها ينظران إليها بتقدير كبير.. وكان والدها يتمني لها أن ترتبط بعادل لقرابته منه وإن كان مستوانا – أنا وعادل – متقارباً. أما الأم فقد كانت فرحة بهذا الحب وإن لم تعلن ذلك صراحة"[٨].

يتابع الكاتب حديثه عن نادية السكندرية رمزا للمدينة – في الشمال المصري- التي حظيت بمثل هذا الاهتمام الذي افتقدته القرية في الجنوب المصري. فنادية هي رمز المدينة بكل مالهاوماعليها. يتحدث الكاتب – علي لسان مصطفي – عن هذا التناقض الذي يضع حداً بين ظاهر نادية وباطنها، تماماً كالمدينة،التي ينم ظاهرها الخارجي عن أرستقراطية لامعة ، أما حقيقتها الكامنة في طريقة تعاملها وتفاصيل ملامحها،فتتمحور في تلك البساطة التي تتسم بها، وبخاصة عندما يقترب مصطفي من أسرتها ، وتكشف له الأيام عن تلك الحميمية التي تربط مابين الإنسان والمكان.

" فاستخدام الرمز – كأداة فنية لإثراء العمل الأدبي – قديم في الأدب، وعلي قدر ذكاء الأديب في إيجاد العلاقة التي تربط بموضوعه من التجربة يكون نجاحه. وقد استخدمت الرواية الرمز أحياناً متشحة بجماله الفني و عمقه في التعبير عن المعني، لتعبر عن فكرة أبعد مما توحي به الحكاية في الرواية"[٥] والملاحظ هنا – ونحن بصدد الحديث عن علاقة أو ثنائية المرأة والمكان – أن الكاتب لم يتحدث عن الأسكندرية – كمكان – ولم يأت علي ذكر تفاصيلها ولو مرة واحدة في الرواية ، ليس لأنها معلومة مشهورة إعلامياً و جغرافيا . ولكن لأنه استبدل المكان بالمرأة ، فأسهب في حديثه عن المرأة بكل تفاصيلها وملامحها عوضاً أو وبديلاً عن وصفه للأسكندرية / المدينة. وكأنه بهذا الوصف لملامح وطباع نادية . قام بوصف المدينة بكل تفاصيلها.

سلمي الأسوانية (القرية) :

لم يأت الكاتب في الرواية كلها علي وصف مدينة الأسكندرية مكتفياً بالحديث عن نادية،وكأنها البديل أو المعادل الموضوعي لتقديم الوصف المتكامل لتفاصيل هذه المدينة الساحلية العصرية. يقدم الكاتب وصفاً لملامح وطباع نادية ، لتنسحب هذه الأوصاف علي المدينة بكل تفاصيلها." فمن الطبيعي أن تكون قمة الجغرافيا هي التعرف علي شخصيات الأقاليم. والشخصية الإقليمية شئ أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الأقاليم ، إنها تتساءل أساساً عما يعطي منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق وتريد أن تنفذ إلي روح المكان لتستشف عبقريته الذاتية التي تحدد شخصيته الكامنة"[٦].

يختلف الأمر تماماً عندما يتحدث الكاتب عن سلمي الأسوانية ، حيث تتوارى سلمي في مساحة ظل هامشية ، لتفسح المجال واسعاً لإسهاب الكاتب في وصف المكان (النجع أو القرية الجنوبية) التي يجهل القارئ معالمها وجغرافيتها ، عكس الأمر مع مدينة الأسكندرية العصرية.تأتى ثنائية المرأة والمكان في النص بشكل يتوافق وطبيعة الأمكنة من جهة . وواقع الشخوص من جانب آخر. يتحدث مصطفي عن سلمي حيث يقول:

" حقا إن نشأتي بالأسكندرية واختلاطي بأوساط المثقفين قد بدلا الكثير من قيمي وأفكاري.. لكن هذا يتضاءل إذا قورن بعاطفتي تجاه الأسرة.. وما لها سلمي؟ أليست جميلة؟ إنها جميلة جداً.. خمرية اللون.. مستقيمة الأنف.. حلوة العينين في شفتيها رقة وفي صوتها رخامة.. جسمها الذي يميل إلى الطول ممتلئ قليلاً.. إذا ابتسمت ظهرت لها غمازتان تخلبان اللب وتذهبان بالعقل.. لكن عقلي أنا – قاتله الله – لايديره الجمال وحده لابد من أشياء أخري تساعد الجمال حتى يستطيع أن يغزو قلبي.. أشياء يقتنع بها عقلي فيرسل إشارة إلي قلبي حتى يبدأ بالخفقان! سلني لا تصلح لي.. فكيف أتزوج منها.. كيف أتزوج ممن لم تفتح في حياتها كتاباً أو مجلة أو حتى تفرق بين الألف والنبوت ؟ ثم كيف أصحبها معي إلى الأسكندرية وأتبادل وإياها زيارة الأصدقاء والزملاء وزوجاتهم وهي التى لم تخرج من القرية في حياتها إلا إلي الشاطئ المقابل لجزيرتنا" [١١].

إشكالية مصطفي إذن ، مع العقل الذي يعالج أقفال القلب ، وليست مع الملامح الجمالية فحسب.وهو هنا أمام هذه الثنائية (ثنائية القلب والعقل) ، يطابق الحال علي الثنائية الأخرى (ثنائية المرأة والمكان). فما يمكن أن يطرق قلبه هو العقل والفكر والثقافة ، فأي فتاة – سواء نادية أو سلمي أو غيرهما – يمكنها أن تنفذ إلي قلبه ومشاعره من خلال اختراق عقله وإشباع فكره أولاً. " فالبشر في عالم القصة، يواجهوننا – حين نلقاهم – غير معزولين عن محيط عائلاتهم وأصدقائهم وأعدائهم.. إنهم موثقون بخيوط قوية من أخطاء الماضي، والآمال المحبطة ، وطبيعة العلاقات الشائكة التي تمليها الحياة الفعلية علي الرجال. ومن ثم يتاح مختبر لفهم السلوك الفردي والجماعي ، والتعرف علي طبيعة ردود أفعالنا يمكن أن يكون أكثر حساسية ومرونة في الأدب"[١٢] . يعبر مصطفي عن ذلك حين يفصح عن مكنون عقله الذي لا يديره الجمال وحده ، بل مع الجمال أشياء أخري لابد أن تتوافر في تلك الفتاه التي يقتنع بها عقله ، فيرسل إشارة إلي القلب حتى يبدأ في الخفقان.

بعد هذا الطرح الذي يعرضه الكاتب علي لسان مصطفي لثنائية القلب والعقل، يطفوعلى السطح هذا السؤال الأساسي : هل يمكن لسلمي بما أتيح لها من جمال ، وما حرمته من علم وثقافة أن تنافس نادية بجمالها الهادئ وعقلها الراجح ، وثقافتها المتنوعة؟.

الإجابة علي السؤال تجرنا إلي تلك الثنائية التي نتحدث عنها ، وهي ثنائية المرأة والمكان. فكما عبرت نادية عن تلك المدينة الساحلية العصرية المنفتحة ، تجسد سلمي محنة القرية الجنوبية بكل ما تتميز به من جمال واضح، وما تعانيه من إهمال فكري وعلمي، وحرمانها من خطط النهضة والتنمية الوطنية الشاملة لوقت ليس بالقصير في تاريخ مصر الحديث والمعاصر.

" ولأن النص الروائي يمثل بنية دلالية تمتاح مادتها من البنيات الثقافية الحضارية للبيئة التي أنتجتها ، ومن هنا تتمايز الروايات من مكان لآخر . ولو أن النص الروائي تزامن مع

البني الحضارية والواقع المعيش ، فإنه سيمثل نموذج التفاعل الذي يعكس قدرا كبيرا من التميز، والتميز المعني هنا ليس فقط الجودة الفنية وإنما التميز بمعني الاختلاف والاستقلال التعبيري – بدون النظر للمستوي الفني فهذا أمر آخر – وذلك لأن الرواية ليست نصاوانما هي ممارسة نصية"[٦٣]. من خلال هذا الطرح ، فان مصطفي عندما يتيه طرباً وعشقاً بنادية ، فهو يميل ناحية المدينة في مقابل رفضه للقرية ، بكل ما فيها من جهل ومرض وتخلف ، وكأن هذه القرية – أو سلمي - هي التي فعلت هذا بنفسها ، عن رغبة واقتناع ، وليس عن تجاهل وتقصير إداري . يستكمل مصطفي تكراره لمبررات هذا الرفض بقوله: " أنا أتزوج من سلمي؟ أنا؟ تلك التي أراهن أنها لم تسمع بشئ اسمه الموسيقي في حياتها؟ لتذهب هي وأبوها وأسرتها إلي الجحيم وليركبهم العار وليدفنوا أحياء.. ألم يقولوا إن كثيرين من أبناء القبيلة تقدموا للزواج منها وفي هذا محو لعارهم.. لم لايزوجونها من أحدهم فهم أقرب إلي عقليتها مني.. هي ستشقى معي بقدر ما سأشقى معها.. أجل هذا هو الحل السليم لتتزوج سلمي من أحد أبناء القبيلة ولأترك أنا في حالي أعيش حياتي كما أحب فلن أعيش إلا مرة واحدة.. ثم من أدراني أن سلمي هذه تود الزواج بي؟ حقاً إنها لا تملك حق الرفض أو القبول ككل فتيات القرية.. لكن ألا يحتمل أنها تضمر لي كرهاً ؟ "[٦٤].

يتحدث مصطفي عن كل تفاصيل قريته ، ويسهب في الوصف وكأنه يدق ناقوس الخطر من هذا الإهمال المتواصل للجنوب المصري بعامة ، وقراه الفقيرة بصفة خاصة. وتأتي أوصاف القرية مطابقة لأوصاف سلمي ، تعاني ما تعانيه القرية الجنوبية من حالة التخلف والتردي العام في مجمل أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. لهذا – وغيره – تأتي المعادلة ومجمل المقارنة دوماً في صالح نادية السكندرية ، أو لنقل المدينة عندما نضعها في مقابل سلمي الأسوانية أو القرية. وتتحقق ثنائية المرأة والمكان حينما يميل عقل وقلب مصطفي لنادية (المدينة) بكل مالها ، في حين يلفظ – فكرياً ومنطقياً – سلمي (القرية) بكل ما عليها . " وهكذا اعتبر النص الأدبي وثيقة نفسية تقوم مقام لوحة إسقاط في عيادة التحليل النفسي"[٦٥].

نحن هنا أمام هذه الأنماط الرمزية: (نادية / المدينة) ، (سلمي / القرية).لانلزم الروائي بأن ينقل عالم الواقع داخل عالمه الفني بأمانة ومطابقة تامة ، ولا نفرض عليه أيضاً أن يأتي قلمه كريشة الفنان التشكيلي ، أو كعدسة الكاميرا الفوتوغرافية في يد المصور الصحفي ، يسجل من خلالها كل صغيرة وكبيرة ، ويقوم بعملية النقل الواقعي الوثائقي للأحداث الحياتية المعيشة والواقع الاجتماعي الكائن بالفعل ، وإنما نقصد من ذلك مطالبة الكاتب بأن يوجد رابطة ما بين الواقع المعيش وواقعه الفني . وبخاصة حينما تتعلق القضية بعلاقة المكان بالإنسان أو كما نسميه هنا ثنائية المرأة والمكان ، سواء علي مستوي الشكل أو المضمون الفني " وليس الشكل الأدبي مجرد انعكاس موحد ومكثف للشكل السائد في

المجتمع . وإنما هو وسيلة خاصة لتجاوز الواقع ، وللحيلولة دون عودة الاستبصارات الجديدة إلي الإندماج بسهولة في القوالب المألوفة المستهلكة " (٢٠)

الكاتب تعمد تهميش دور سلمي وتسطيح شخصيتها ، علي الرغم من تسمية الرواية باسمها ، ودوران الأحداث ينصب حول مشكلة ارتباط البطل بها ، إلا أننا عندما ننظر إلى جوهر العلاقة بين شخصية سلمي والمكان(القرية) ، نجد أن هناك حتمية اجتماعية وأخري فنية جعلتا الكاتب يلجأ إلى هذا التهميش لدورها والتسطيح لشخصيتها. سلمي لم تحدثنا مباشرة – قراء النص – ولم نتعرف علي مفاهيمها عن الحياة أو المكان، بل لم نتعرف حتى علي رأيها في مشكلة زواجها. وقد ورد الحديث عن سلمي في مواضع عدة من النص ، وعلى الرغم من ذلك جعلنا الكاتب نتوقف عند هذه الشخصية من الخارج فقط ، دون التعمق في أغوارها والتعرف على مفاهيمها وما يعتمل في نفسيتها ، واكتفى الكاتب بعرض سريع لوصف الملامح البدنية لها .

فرفض مصطفي الزواج منها ، ماهو إلا لرفضه الكامن للمكان نفسه.وهنا ارتبطت شخصية سلمي بالمكان في عقل بطلنا ، وهذا ماتعمده الكاتب من البداية. فلم يقل الكاتب مباشرة إن المكان متخلف ومنعزل عن المدينة ، علي الرغم من جماله ونقائه ، وإنما جاء ذلك بطريق غير مباشر من خلال نظرته ورأيه في سلمي ، وإن ورد هذا التعريف من خلال حديث الشخوص عنها ، وليس من خلال سلمي ذاتها التي لم تقرأ كتاباً أو مجلة ، أمية منعزلة لم تفارق مكانها مطلقاً ، وكأنها قد تجمدت وتحولت إلى قطعة من المكان، والمكان كله قد تحول إلي قطعة منها. هنا نجد أن تسطيح هذه الشخصية لم يأت عفواً من الروائي . وإنما جاء متعمداً لتعميق فكرة أراد الكاتب التركيز عليها ، لكون شخصية سلمي تعد نموذجا للمرأة الجنوبية التي تقوقعت على نفسها من جهة ، وفي مكانها من جهة ثانية. فزاد ارتباطها بالمكان وأصبحت تشبهه تماماً في التأخر والانعزال إلى حد التطابق من خلال هذه الثنائية التي تجمع ما بين المرأة والمكان ، حتى من خلال المقارنة بين نادية وسلمي:

الدلالة	نادية السكندرية	سلمي الأسوانية
الجمال	بسيطة هادئة الجمال	فاتنة متفجرة الملامح
العقل	تشبع العقل بثقافتها	تشبع العين بروعتها
الإرادة	تملك قرارها وإرادتها	مسيرة بلا خيار أو إرادة
العمل	تعمل وتشارك اجتماعيا	قابعة في منزلها بلا مشاركة
العلم	مثقفة واسعة المدارك	أمية محرومة من العلم والثقافة

البطل عندما يعقد تلك المقارنة بين سلمي ونادية ، تفتقد هذه المقارنة عنصر التكافؤ ، وتبدو المنافسة ظالمة وفي غير موضعها الصحيح. فنادية السكندرية لم تعتزل الدنيا في مكانها داخل قرية جنوبية نائية ، ولم تغرق في الأمية أو تحرم من الثقافة والعمل كما حدث مع سلمي الأسوانية التي وإن كانت تفوق نادية جمالاً ، إلا أنها لا تشبع العين دون قناعة العقل ، تماماً كالمكان الذي يريح النفس ويجهد العقل من كثرة التفكير في جملة مشاكله وتأخره التنموي.

ويعرض الأسواني ذلك بواقعية تعتمد علي آلية مشاكله الواقع بين معطيات المكان ، وطبائع الشخوص " والفكرة التي تنطوي عليها الواقعية ، باعتبارها الملمح الأول والأساسي من ملامحها ، هي فكرة مشاكله الواقع سواء في المادة أو في التقنية ، بمعني أنها تلجأ إلي التفاصيل الدقيقة والحاسمة من أجل تصوير الأحداث والشخصيات بصورة (القرية) صادقة قدر الإمكان " (١٠٠).

هذه الضرورة الاجتماعية دفعت الكاتب لتهميش دور سلمي وتسطيح شخصيتها ، أضف إلي ذلك الحتمية الفنية حتى لا يتعاطف القارئ من البداية مع سلمي ويتجاهل ما أراد الكاتب أن يوضحه من خلال مصطفي الجنوبي الذي درس ويعمل بالأسكندرية. فالكاتب حين يتحدث عن سلمي ، كأنه يتحدث عن القرية والعكس. فاختلط المكان بالشخوص ، وذابت الشخوص في المكان. و عندما ينهي الكاتب روايته علي لسان (عم عبد الله) تأتي منطقية من خلال تلك الثنائية التي نبحثها. يقول الكاتب:

" انتهت أجازتي.. وتجمع أبناء القبيلة يودعونني.. وشد عم عبد الله يدي وهمس في أذني قائلاً: أحقاً أنك تعشق بحراوية؟ ولما اطمأن إلي أن أحداً لا يسمعنا همس لي قائلاً: مادمت قد دخلت علي بنت عمك فلا عار عليك بعد الآن إن تركتها لتتزوج من غيرك!! لكن هل تظن أن البحراويات أجمل منها؟ علىّ الطلاق هي أجمل"(١٠١).
وفي هذه العبارة أراد الكاتب أن ينتصر للمكان – سلمي الأسوانية – حينما يقرر علي لسان (عم عبد الله) تفوق سلمي على نادية أو غيرها من بنات الشمال في الجمال والفتنة ، أو بمعنى آخر القرية الجنوبية أجمل – ولو في عيون سكانها – من غيرها في مدن الشمال.

البطل وحالة الفصام الفكري والنفسي

البطل المشطور بين القرية والمدينة :

يتأرجح البطل في حالة من التجاذب بين الواجب والعاطفة ، ذلك الواجب الذي يشده بقوة جهة القرية في الجنوب ، حيث الأهل والأصل المتجذر ، وتلك العاطفة التي تحلق به عاشقاً منطلقاً جهة المدينة في الشمال حيث الحب والعمل. يعود مصطفي إلى قريته بعد الاستدعاء العاجل من أسرته ، وهناك تتنازعه مشاعر الود الدافئ والمحبة الصادقة من قومه في مقابل حنينه المتدفق لتلك الفتاة المغرم بها في المدينة. يعبر مصطفى عن سعادته الفطرية باحتضان الناس والأمكنة في قريته حيث يقول:" شعرت بسعادة لا مثيل لها بين قومي..عواطفهم الصادقة لا يتطرق إليها الشك إن سلم عليك أحدهم في حرارة.. فإن هذه الحرارة ترجمة صادقة لعواطفه.. جزيرتي هي المدرسة البسيطة التي أتعلم فيها الصدق مع نفسي وهي بخلاف مدرسة المدينة ذات الحرارة المفتعلة التي تستقبل بها من نرجو خيرهم أو نخشى شرهم. قضيت حوالي الأربع ساعات في الخيمة استمتع بحرارة القلوب البسيطة الصافية"(١٩).

البطل لا ينكر على المدينة – رغم تعلقه بها – زيفها وافتعالها ، أمام صدقية القرية ودفئها الصافي البسيط. وتتصاعد نبرة اليقين في حديث مصطفى عن قريته وموطنه الأول ، حتى يصل به اليقين إلى اعتبار قريته هى المدرسة الإنسانية التي تعلم فيها ومنها هذا الصدق في المشاعر ، وتلك الوداعة في الطبع ، مما كان له أثرٌ عميقٌ في حالة التصالح مع الذات والتي يحس بها خلال وجوده بين حنايا أمكنته القروية البسيطة.

بين المدينة والقرية يظهر بطلنا وهو على وعي كامل بأزمته وانقسامه مشطوراً إلى نصفين مشدوداً كقطعة المطاط بين المدينة في الشمال والقرية في الجنوب. يقول مصطفى: " أويت إلى فراشي وأنا في غاية التعب والإرهاق.. ومع أنني لم أذق للنوم طعماً في الليلة الماضية – ليلة القطار – إلا أنني فشلت في أن أجذب النعاس إلى عيني.. كانت صورة اللقاء العاصف الذي ينتظرني مع أبي في الصباح كافية لطرد كل محاولة النوم.. بل إنني فقدت حتى مجرد التفكير السليم.. ومرت صور حياتي بمخيلتي مروراً سريعاً ولكن في وضوح.. أنتمي إلى أسرة لا تفهمني ولا أهضمها. أشعر كأنني أعيش بشخصيتين مختلفتين.. شخصية يعرفها زملائي في العمل وأصدقائي ومعارفي بالأسكندرية حيث نشأت وتعلمت.. وشخصية أخرى يعرفها أبي وأهلي وأبناء قبيلتي ولا تمت للشخصية الأولى بصلة.. فقد نشأت بالأسكندرية مصادفة"(٢٠).

تتعمق حالة الانقسام، ومحنة الفصام الفكري والنفسي حين يتأمل البطل مبصراً ذاته المشطورة إلي نصفين أو إلى شخصيتين ، كل واحدة منهما تقف على طرف النقيض من الأخرى:

- شخصيته في الإسكندرية ← يعرفها الزملاء والاصدقاء (ونادية)

- شخصيته في القرية ← يعرفها الأهل والقبيلة (وسلمى)

تبدو المساحة واسعة بين الشخصيتين، والهوة عميقة بين الصورتين. يحاول الكاتب من خلال هذه المساحة الفاصلة بين (البطل/المدينة) و (البطل/القرية) أن يناقش مجموعة من الإشكاليات المتعلقة ببعضها البعض، يأتي على رأسها قضية القصور في توجيه مشروعات التنمية لأقاليم الجنوب المصري، وما تبعها من موجات الهجرة الداخلية العشوائية من الجنوب إلى الشمال، بما خلفته هذه الهجرات غير المنتظمة من آثار سلبية على المكان والبيئة الجنوبية. " والمكان يدعونا للفعل ولكن قبل الفعل ينشط الخيال ينقى الأرض ويحرثها. إن علينا أن نتحدث عن منافع هذه الأفعال.. إنها المفارقة أن يتوقف الروائي عن متابعة دراما إنسانية متوترة ليقدم لنا منمنمة تحتاج إلى إيضاح من منطلق القوانين الأدبية"(٢١).

تظهر هذه الآثار واضحة قوية على المرأة الجنوبية التي غدت – أمام هذه الهوة العميقة بين الجهتين – مرادفة بتفاصيل ملامحها للمكان المهجور، لتتطابق في النهاية صورة: (المرأة/ المهجورة) مع (المكان /المهجور).

يتابع مصطفى حديثه عن حالة الانقسام و الفصام التي يعيشها ويعانيها حيث يقول: " ومع الأيام أصبحت وكأنني شخصيتان مختلفتان.. شخص لا يقدم على أمر بغير اقتناع.. يعشق الأدب والفن.. يحترم رأي غيره.. يعتقد أنه يعيش في القرن العشرين طالما كان بين أقرانه في الأسكندرية.. و شخص آخر يتصرف في حدود معينة رسمتها له تقاليد وضعت منذ عدة قرون.. ويؤمن – ضمن ما يؤمن بكرامات مجذوب القرية ولي الله فراج.. طالما كان موجوداً بالقرية. فكيف السبيل الآن إلى إلغاء الشخصية التي يعرفها الأهل وفرض الشخصية الحقيقية؟ يا له من امتحان رهيب هذا الذي أنا مقبل عليه" (٢٢).

البطل المهاجر – عقلياً ونفسياً – إلى الشمال يسقط ممزقاً مشطوراً إلى نصفين بين: (القرية الطاردة-سلمى/ والمدينة المستقطبة-نادية). وأمام هذه الحالة من التشظي النفسي والفصام الفكري ، تتكامل عناصر الصورة المأساوية الكلية ، فليست سلمى في المحصلة النهائية هى الضحية الوحيدة ، ولكن مصطفى أيضاً ضحية هذا التجاذب الحاد بين الواجب والعاطفة ، أو بين القرية والمدينة ، ذلك التجاذب الذي أوجدته حالة الإهمال المتعمد لإقليم جغرافي واسع لسنوات عديدة ، وإسقاطه من حسابات السلطة المركزية بإقصائه عن خطط وبرامج التنمية والتطور. ووسط هذا الإهمال وذلك الإقصاء يصبح الجميع ضحايا والكل مهان، مصطفي وسلمى والمكان بكل تفاصيله.

مجاهدة البطل للخروج من الشرنقة :

وسط هذه الحالة من التجاذب الحاد ، و الاستقطاب العفوي ، والإقصاء المتعمد ، تتراجع الشخوص بآمالها وأحلامها متقوقعة حول ذواتها ، منطوية على نفسها ، تمضغ أحزانها ، وتجتر محنتها الخاصة التي كبلتها وحدّت من حركتها وجعلتها تدور – حتى الغثيان – في فلك الأزمة الشرنقة الآسرة ، الكاشفة لكل معطيات هذا التجاذب ، ومتناقضات الاستقطاب ، ونواقص ذلك الإقصاء. يجاهد مصطفى للخروج من الشرنقة ، والفكاك من خيوطها القوية الصارمة ، صرامة المكان والتقاليد. يقول:

" وبعد قليل انصرف الرجلان ووجدت نفسي فجأة مع أبي وجهاً لوجه.. فانقبض صدري لشعوري بأنني مقبل على مناقشة عاصفة قد يتقرر فيها مصيري كله.. إما أن أنفذ مطالب العائلة وأخضع لمشيئتها وفي هذا إلغاء كلي لشخصيتي وإما أن أرفع راية العصيان وأستعد لمقاطعة الأهل ومغادرة الجزيرة الحبيبة إلى غير رجعة.. أمران أحلاهما مر.. شعرت برأسي يدور وكأن حرارتي ترتفع وبادرني أبي قائلاً: لم أسمع رأيك! قلت وأنا أتهيأ للنضال: رأيي قلته! قال وقد عقد مابين حاجبيه: متى قلته؟ ولمن؟ وكيف قلته بهذه السرعة؟ ! ولم أدر ماذا أقول فقد خيل إليّ أنه عرف رأيي منذ فاجأني أتحدث مع أمي وأختي ليلاً"[٢٣].

تنفجر أزمة البطل مع حالة من تصادم الرغبات ، الرغبة الشخصية لمصطفى بالزواج من نادية ، والرغبة العائلية الملحة لزواجه من سلمى. وأمام هذا التصادم والصراع بين العاطفة الذاتية والواجب الجمعي ، يقف البطل عاجزاً محاصراً في مواجهة بين خيارين لا ثالث لهما:

الأول : إلغاء وسحق شخصيته بانصياعه لرغبة العائلة والواجب.
الثاني : العصيان والمقاطعة والمغادرة إلى غير رجعة نصرة عاطفته.
أمام هذا التردد في مواجهة مثل هذه الخيارات الموجعة المريرة ، ينكفئ البطل على ذاته أكثر فأكثر متقوقعاً داخل شرنقته التي يجاهد لفك شفراتها والخروج منها. يقول مصطفى عن ذلك:" ما هي الخطوة التي يجب أن أخطوها ؟ يجب أن أتصرف.. لا ينبغي أن أقف هكذا مكتوف اليدين.. هل أسافر ؟ أجل يجب أن أسافر ما الذي يمنعني ؟ يجب أن أغادر القرية فوراً.. في الأسكندرية سأعيش كما أحب أن أعيش لا سلطان لأحد علي هناك فلن أعيش إلا مرة واحدة.. واحدة فقط.. قرأت – لا أدري أين – إن في حياة الإنسان ثلاثة أحداث اثنان منهما لا يد فيهما.. والثالث متروك له فيه الاختيار ، الأحداث الثلاثة هي:

المولد.. والزواج.. والموت. الزواج فقط من حقه ، وقومي – سامحهم الله – يريدون حرماني من حقي الوحيد في الاختيار.. مستحيل لن أعطيهم الفرصة لحرماني ، يجب أن أسافر اليوم.. بل الآن"[٢٤].

في لحظة فوران العقل والقلب ، يقرر البطل أن يخترق جدران الشرنقة ، يكسر كل القيود التي تكبله في حدود المكان وما يحويه من تجاذبات حادة ، وفروض صارمة. يلجأ مصطفى إلى المنطق ، علّه يستطيع بالعقل والمنطق أن يخترق هذا الحصار ويخرج من أزمته وشرنقته ، حيث يضع الزواج بين المولد والموت:

(المولد ←— الزواج←— الموت)

فلا يد أو رأي له في المولد ، والموت مسألة قدرية بيد الله ، وكل ما يملك من حقوق الاختيار هو قرار الزواج فقط. فماذا يتبقى له إذا ما حرم من حقه الوحيد في الحياة الاختيار ؟ لا شئ.

أمام هذه الحقيقة المنطقية المؤكدة يقرر مصطفى أن يغادر منطلقاً من قريته الجنوبية إلى الأسكندرية في الشمال حيث يمكنه أن يعيش كما يحب ويريد ، متحرراً من كل القيود الصارمة التي تفرض سلطانها وسطوتها علي قلبه وعقله معاً. وهنا يصطدم القارئ بحقيقة سطوة البيئة المكانية على الأحداث والشخوص على حد سواء ، بما يجعل الرواية رؤية مكانية تتجاذب فيها الشخوص دور البطولة مع المكان في داخل النص ، لتنتهي هذه المنازعة وهذا التجاذب بتبادل الأدوار بين الشخوص والمكان ، حيث يصبح الحديث عن سلمى – التي سميت الرواية باسمها – انعكاساً للقرية الجنوبية ،كما غدت نادية انعكاساً للمدينة الشمالية بكل مالها وما عليها في ثنائية تعمد الكاتب أن يصل بها إلى مجموعة من المضامين الاجتماعية والثقافية ، هذا إلى جانب المضمون أو الرؤية الفنية التي سخر فيها أدواته الفنية أو الروائية ، ليصل بهذا النص إلي ما وصل إليه من خلال هذه التجاذبات الحادة بين الشخوص والأمكنة من جانب ، وتلك الفرضيات الصارمة بين الأزمنة والأحداث من جانب آخر.

" وإذا كان الزمن بخاصة في عصرنا الذي يتميز بإيقاعه السريع ، أصبح يشكل للإنسان مشكلة نفسية خطيرة ، كان لابد أن تتأثر الأعمال القصصية بهذا الحس الزمني القلق تأثراً بالغاً. و لهذا فإننا كثيراً ما نجد أن الرواية الحديثة لم تعد تركز على تصوير الشخوص أو الأحداث بقدر ما تهتم بإبراز المتغيرات النفسية التي تحدث داخل الإنسان نتيجة إحساسه القلق بإيقاع الزمن. ولهذا فنحن لانتحدث عن الزمن الحسي في القصة ، أو زمن الساعة الذي ينظم حياتنا وتحركاتنا اليومية ، ولكننا نتحدث عن الزمن السيكولوجي أو بالأحرى الزمن القصصي "(٢٥).

المكان هنا يتعدى دوره الجغرافي المحدود بوصفه حقيقة جغرافية وكونية حاوية للأشياء ، يدركها الإنسان عقلياً أو حسياً ، إلى أن يتحول بين ثنايا النص الروائي إلى شخصية

محورية لها من الفاعلية والحركة ما يجعلها أشد عمقا ، واقوى اثرا. في محاولة لابراز مفهوم المكان الروائي . واستلهام دلالاته والإحاطة بأبعاده المختلفة.

هوامش البحث :

(١) د. شعيب حليفي - شعرية الفانتاستكية – ص١٧٣.
(٢) د. صلاح فضل - شفرات النص- ص ٢٢٤.
(٣) د . سيد حامد النساج - بانوراما الرواية العربية الحديثة – ص ١٠٥.
(٤) د . محمد قطب - الروي والاحلام قراءة في نصوص روائية – ص ٢٦١.
(٥) عبد الوهاب الأسواني – سلمي الأسوانية – ص ١١.
(٦) د . محمد شبل الكومي – مبادىء النقد الأدبي والفني – ص ١٢٥.
(٧) عبد الوهاب الأسواني – سلمي الاسوانية – ص ٢٢ .
(٨) نفسه – ص ٦٥ .
(٩) د . طه وادي – صورة المرأة في الرواية المعاصرة – ص ٩٥.
(١٠) د . جمال حمدان – شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان – ٢/ ٧.
(١١) عبد الوهاب الاسواني – سلمي الاسوانية ص ٢١ .
(١٢) روجر ب . هينكل – قراءة الرواية مدخل إلي تقنيات التفسير – ص ٤٨ .
(١٣) د . محمد نجيب التلاوي – وجهة النظر في رواية الأصوات العربية – ص ٣٨ .
(١٤) عبد الوهاب الأسواني – سلمي الأسوانية – ص٢٣ .
(١٥) د . عبد السلام المسدي – الأسلوبية والأسلوب – ص ٢٠٠ .
(١٦) رامان سلدن – النظرية الأدبية المعاصرة – ص ٦٢ .
(١٧) د . السيد إبراهيم – نظرية الرواية – ص ٢٠١ .
(١٨) عبد الوهاب الأسواني – سلمي الأسوانية – ص ١٦٨ .
(١٩) نفسه – ص ١٦ .
(٢٠) نفسه – ص ٢٥ .
(٢١) غاستون باشلار – جماليات المكان – ص ٤١ ، ١٥٤ .
(٢٢) عبد الوهاب الأسواني – سلمي الأسوانية – ص ٢٨ .
(٢٣) نفسه – ص ٣٩ .
(٢٤) نفسه – ص ٩١ .
(٢٥) د . نبيلة إبراهيم – نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة – ص٣١

المصادر والمراجع :

(١) د . جمال حمدان – شخصية مصر . دراسة في عبقرية المكان .
(عالم الكتب – القاهرة ١٩٨٤) .
(٢) رامان سلدن – النظرية الادبية المعاصرة – ترجمة: د. جابر عصفور.
(دار قباء – القاهرة ١٩٩٨) .
(٣) روجرب. هينكل – قراءة الرواية. مدخل إلي تقنيات السرد ترجمة: د.صلاح رزق
(دار غريب – القاهرة) .
(٤) د . السيد إبراهيم – نظرية الرواية . دراسة لمناهج النقد الأدبي في معالجة فن القصة
(دار قباء – القاهرة ١٩٩٨) .
(٥) د . سيد حامد النساج – بانوراما الرواية العربية الحديثة (دار غريب – القاهرة ط ٢) .
(٦) شعيب حليفي – شعرية الرواية الفانتاستيكية- المجلس الأعلي للثقافة – القاهرة ١٩٩٧
(٧) د. صلاح الفضل – شفرات النص – بحوث سيميولوجية في شعرية القص والقصيده
(دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع – القاهرة ١٩٩٢) – ط١ .

(٨) د. طه وادي – صورة المرأة في الرواية المعاصرة.
(دار المعارف – القاهرة ١٩٨٤) ط ٣ .
(٩) د. عبد السلام المسدي - الاسلوبية والأسلوب (دار سعادة الصباح-الكويت١٩٩٣) ط٤ .
(١٠) عبد الوهاب الاسواني – سلمى الأسوانية (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – القاهرة)
(١١) غاستون بلاشلار – جماليات المكان – ترجمة :غالب هلسا
(المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – القاهرة ١٩٨٧) ط ٣.
(١٢) د . محمد شبل الكومي – مباديء النقد الأدبي والفني دراسة في المنظر والمنظور
(الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ٢٠٠٧) .
(١٣) د. محمد قطب - الرؤى والأحلام قراءة في نصوص روائية
(الهيئة المصرية العامة للكتاب –القاهرة ١٩٩٥).
(١٤) د. محمد نجيب التلاوي – وجهة النظر في رواية الأصوات العربية في مصر
(مطبعة اكسبريس – المنيا ١٩٩٦).
(١٥) د. نبيلة ابراهيم – نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة
(مكتبة غريب – القاهرة) .